الثورة الكبرى

أطالع كلام العلماء والأدباء والفلاسفة في دعوته ﷺ فأشعر بالفخر وتجري في عروقي دماء الحرية، وتنقدح في رأسي نار الشمم والعزة والأنفة وإذا الذي حصل في مكة يوم بعث الرسول ﷺ ثورة عارمة وزلزال هائل وبركان ناسف عاصف قاصف: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، يقول ابن سينا: ما طرق العالَم ناموسٌ كناموس محمد ﷺ، طالعت كلام علي الطنطاوي وخالد محمد خالد في أول كتاب (رجال حول الرسول ﷺ)، وأبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، وإذا الثورة الكبرى التي طبقت الأرض وفُتحت لها السماء وتنزلت من أجلها الملائكة وتهيأت لاستقبال روادها الجنة وقامت محكمة العدل بسببها في الأرض وسقطت الأصنام وسُحقت الوثنية وهُدم إيوان الاستبداد واحترقت وثيقة الظلم.

إنها ثورة غيرت الأفكار وطهرت الضمائر وغسلت النفوس وحررت الشعوب وأنقذت المستضعفين وأشرقت بشمسها الأرض وحيّاها الأخيار ورحب بها الأحرار وناصرها كل أبيّ كريم، إنها الثورة التي نقلت رعاة الغنم إلى قادة أمم وسدنة الأصنام إلى حملة أعلام وأبطال إقدام وأصحاب أقلام، إنها الثورة التي دكت معاقل الظلم ونسفت ثكنات الإلحاد ودمرت جبروت كسرى وألغت أكذوبة قيصر، أذّن بإعلان الثورة بلال على الكعبة، ارتجت المعمورة وانخنست الشياطين وطُهرت الجزيرة وما حولها من الرجس والدنس والخيانة.

ثورة ميثاقها في اللوح المحفوظ وسفيرها جبريل وقائد كتائبها رسول الهدى ﷺ، وجزاء عشاقها الفردوس الأعلى، ثورة حولت الأعراب إلى علماء حكماء وإلى شهداء أولياء، وإلى مجددين مصلحين، وإلى قادة فاتحين وإلى حكام عادلين وخلفاء راشدين وأئمة مهديين، ولو لم تحصل هذه الثورة لعاشوا أصفاراً، وماتوا صغاراً، ودُفنوا أشراراً، ثورة صارت حديث الركبان وقصة السمر وحكاية المجالس وأنشودة

عذبة على كل الشفاه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، تقوم الثورات في العالم لتحرير الأرض أو تغيير النظام أو الاستيلاء على المكاسب أو الفوز بمجد دنيوي، لكن الثورة المحمدية جاءت بالوحدانية لله والكرامة للإنسان والطهارة للأرض والعمل للآخرة والصلاح للبشر والعمار للكون، فهي للبدن والروح والدنيا والآخرة والغيب والشهادة والحاكم والمحكوم والذكر والأنثى، إنها ثورة أعادت للدنيا بهجتها وللأيام جمالها وللحياة طعمها وللعمر قيمته وللوجود معناه، ثورة كفلت حق الإنسان ورعاية الحيوان وإنصاف المرأة ونصرة المظلوم وحرية المعتقد والمحافظة على البيئة، ثورة أتت بالأمن الفكري والروحي والمعيشي، فعصمت الأنفس وصانت الدماء وحفظت الأعراض وأحرزت الأموال.

ثورة حرمت السلب والنهب والغدر والفجور والانحراف ونشرت بنود الفضيلة ومعالم البر وآلات الإخاء ودستور المحبة وقيم المساواة والرحمة والسلام والأمن، كل الثورات بقي أثرها في الذاكرة أو سطوراً في كتاب أو حكاية في مجلس سمر، أما هذه الثورة فهي شغل العالم وهي القضية الكبرى في الأرض، وهي حديث الساعة إلى قيام الساعة، الثورات الأرضية ترابية طينية أو قومية عرقية أو طائفية حزبية، أما هذه الثورة فربانية عالمية إسلامية محمدية مقدسة نبوية ورحمة إنسانية، ثورة قادها العرب وحياها الأكراد ورحب بها الأتراك وشارك فيها التركمان واستقبلها الهنود وفرح بها الأحابيش، ثورة ارتج لها سور الصين العظيم وهوى على دويها حكم الفرس وانهار بزلزالها كيان هرقل وانهدم بزحفها جدار الجبابرة والقياصرة والأكاسرة، ثورة كبّر أبطالها في مكة، وصلّوا في القاهرة، وأذّنوا في دمشق وخطبوا في صنعاء ودرسوا في الزيتونة وألّفوا في القيروان، وأنشدوا في الحمراء واستشهدوا في السند، ثورة قام بسببها مئات الدول وآلاف الجامعات وملايين الكتب، فهي ثورة العلم والتعليم والبناء والتعمير، والنهضة والرقي والتحرير والتنوير، والاختراع والإبداع والعبقرية والنبوغ، لتسقط كل ثورة قبلها وبعدها، ولتعش هذه الثورة ثورة: (لا إله إلا الله محمد رسول ﷺ).

قال الأستاذ الكاتب المعروف (قينان الغامدي) بجريدة الوطن: (*)

إن كنت من قراء (عائض القرني) فتابع مقالي واسمح لي أن أسألك، ولاحظ أنني قلت عائض بدون ألقاب لسببين: أولهما أنك حتمًا عرفت من أقصد، وثانيهما وهو الأهم: أنني أريد أن يعرفه الناس دون ألقاب؛ لأنني عندما أسمع مثلاً اسم: مالك بن نبي، لا أحتاج إلى أن يعطيني أحد سيرته الذاتية، ولا الألقاب التي أسبغت عليه، وهكذا غيره من عظماء المفكرين والمؤلفين في مختلف الفنون. والآن إلى السؤال: من هو عائض القرني؟ سأحاول التوضيح: عندما تستمع للقرني متحدثًا، أو تقرأ له ناثراً مقالاتٍ أو كتباً وما أكثر ما يتحدث وما يكتب، أو تقرأ له نظماً، وما أكثر ما نظم، فبمن يذكرك؟

في النثر هل يذكرك بمحمد محمد حسين، أو سيد قطب، أو مالك بن نبي، أو الرافعي، أو بديع الزمان الهمذاني، أو كانت أو هيجل أو ماركس أو فيلبي أو أبو عبدالرحمن بن عقيل، أو المودودي أو ابن تيمية، أو بعض فقهاء المعتزلة، أو المنفلوطي، أو محمد عابد الجابري، أو فلان أو فلان؟ وفي النظم هل يذكرك بأبي العتاهية، أو صفي الدين الحلي، أو ابن مالك (صاحب الألفية) أو نُظّام المتون، أو عبدالرحمن العشماوي، أو العقاد، أو أحمد عطار، أو من يشابههم من النُظّام جيدهم ورديئهم؟ عائض القرني حفاظة نسابة مجود للقرآن، جهبذ في الحديث، ضليع في حفظ وتلاوة الشعر، واسع الاطلاع على الفكر والثقافة، القديمة والحديثة شرقاً وغرباً، وهو رجل منبر من الطراز الأول، بل أكاد أقول: لا منازع له، فهو حاضر البديهة، سريع النكتة، خفيف الظل، مليء الجعبة، لا يجد الملل إلى سامعه طريقاً، وهو صاحبُ قلم سيال لا تكاد تجد مطبوعةً إلا وله فيها مقال، ولا مكتبة إلا وله فيها

(*) أ/ قينان الغامدي جريدة الوطن ١٩ / ٠٦ / ٢٠٠١م.

أكثر من كتاب، لكنه عندما يكتب مقاله الأسبوعي في الشرق الأوسط تشعر بأنه منحه من الوقت والجهد والعناية ما لم يمنحه لغيره من كتاباته، ولذلك تشعر هنا بأنك أمام عائض مختلف، ليس في الفكر فقط، بل في الأسلوب واللغة، فهو هنا ذو فكر يتغير ويتجدد ويتطور، وهذه إحدى سمات المفكر المتأمل، ولهذا فهو هنا وفي هذا المقال بالذات يقدم فكر عائض المنتظر بتركيز وعناية شديدين، وهو يقدم عائض الأسلوب، وأسلوبه في الأصل لا شك رفيع، ولغته راقية، ومعجمه ثري، لكنه هنا وفي هذا المقال الأسبوعي يمنح نفسه فرصة للمزيد من الإجادة، واختيار المفردات الدالة، والجمل المسبوكة بعناية، حتى سجعه يجيء رخاءً طبيعيًّا لا كلفة فيه، ولا اعتساف.

كل هذا، ولكن أمام طغيان ما ينشره الشيخ هنا وهناك، وهدير ما يقوله الواعظ على الشاشات والمنابر؛ خبا وضاع عائض المفكر، الذي أخذه صخب الجمهور إلى وادٍ وارف الظلال، كثيف الشجر، خصب التربة، غزير المياه، لكن ليس فيه منتج واحد يؤكل، ولا فسحة هادئة لمُتأمل، ولا مجال لمن يمر فيه أن يحتفظ له بذكرى محددة، سوى أنه وادٍ جميل المنظر، وارف الظلال، يصلح للتنزه والتسلية، أما الإقامة أو الزراعة فلها أماكنها الأخرى، ووديانها التي تقدم ما ينفع الناس.

عندما أقرأ في كتب عائض القرني أو مقالاته المبثوثة هنا وهناك، أو نظمه الذي ينشره بين الحين والآخر؛ فإنه يذكرني بكل تلك الأسماء الكبيرة التي ذكرتها أعلاه وبأكثر منها، فهو كما قلت: قارئ واسع الاطلاع، وأثر الأولين والآخرين عليه واضح، لكنه أثر متناثر، فلديه من بحر كل منهم قطرة، وأحيانا غرفة، فهو يستقي منهم ويضيف إضافات تضيع في الهدير أو الصخب أو الانتشار، لكن في مقاله في الشرق الأوسط لا أجد سوى عائض القرني المفكر، ولا أدري لماذا لا يصبح فكره وأسلوبه هنا هو القاعدة التي ينطلق منها، ويعود إليها، ويجعل كل ما عدا ذلك هوامش يغيبها شيئاً فشيئاً حتى تذوب في سديم

عائض الجديد؟ ولهذا كان سؤالي في بداية المقال: من هو عائض القرني؟ لماذا أكتب عن عائض اليوم؟ لأنني أقدره وأحترمه وأحبه، وأرتاح لفكره وأسلوبه الجديدين، ولأنه على الرغم من شهرته وتاريخه الذي يبدو طويلاً مازال في مقتبل العمر وعز الشباب، ولا أريده أن ينفق ما تبقى وسط الصخب الجماهيري، والهدير المنبري، فالكتاب كثيرون، والوعاظ أكثر، أما المفكرون فندرة، وأما أصحاب المشروعات الكبرى فأقل من القليل. وهذا واضح ومعروف على مر التاريخ، لكنهم على ندرتهم وقلتهم؛ هم الخالدون في وجدانات وضمائر الأمم، وعائض القرني مشروع مفكر، ولبنة صاحب مشروع حضاري خالد، والمعطيات كلها لديه، فقط قليل من التأمل والتدبر، وقبلهما التخلص من أدران الصخب وعوالق الهدير.

التفكير بين الصخب والهدير

أتحفني أخي الكاتب الأديب المثقف قينان الغامدي في المقال: (عائض القرني المفكر بين والصخب والهدير) بصحيفة الوطن، فأما ثناؤه عليّ فمن لطفه وكرمه -غفر الله لي تقصيري- وأما ملاحظته ونصحه فمحل التقدير عندي، فهو يرى أن أتجه إلى الكتابة والتأمل والاهتمام بالفكرة الناضجة أكثر من الانتشار بالخطب والمحاضرات ومخالطة الجمهور وتشتيت الجهد والطاقة، وكلام أبي عبدالله الأستاذ قينان وافق هوى في قلبي، وقد دلّ القرآن على أن التفرغ الذهني والبعد عن التشويش منهج جميل للتفكير، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، ومعنى الآية: قل يا محمد، لكفار قريش الذين يكذبون برسالتك، ويرون أنه أصابك جنون: إنني أرشدكم إلى طريقة في التفكّر والتّأمل أن تخلوا بأنفسكم كل واحد منكم على حدة، أو كل اثنين على انفراد؛ ليكون أهدى للفكر وأصفى للذهن بعيداً عن العامة والضوضاء ثم تتفكروا في المسألة بتجرد.

وفكرة الإقبال على موهبة واحدة واستفراغ الطاقة في تجويدها هي مما أجمع عليه عقلاء العالم ونبلاؤه حتى قال روبرت جرين في كتاب (كيف تمسك بزمام القوة): «بقرة سمينة ولا سبع عجاف»، وكل نابغي البشرية وفضلاء الإنسانية حبذوا الخلوة بالفكر حتى قال دانتي شاعر إيطاليا: «العزلة مملكة الأفكار»، وقد جمعتُ في كتابي: (**عز العزلة**) غالب أقوال العلماء والحكماء والأدباء في هذه المسألة، حتى إني وجدتُ أن من ترك مشروعاً عملياً خالداً إنما جوّده في اعتزال وخلوة، فالغزالي كتب الإحياء في رحلة طويلة اعتزل فيها الجمهور، فكان هذا الإشراق والنبوغ والألمعية، وابن خلدون كتب المقدمة المذهلة التي هزت

العالم وحيداً منفرداً في قلعة (ألَموت) لمدة خمسة أشهر، والسرخسي الحنفي كتب (المبسوط) الكتاب الشهير وهو معتزل في إقامة جبرية، وفي كتاب: (رحلتي الطويلة إلى الحرية) لنيلسون مانديلا يقول: إنني بعد السجن فقدتُ في الزنزانة متعة التفكير والتأمل وهي نعمة كبرى وكان خير البشر سيد ولد آدم رسول الهدى ﷺ يخلو بغار حراء قبل النبوة الليالي الطويلة وحيداً فريداً يتعبّد، ويتأمّل، ويفكر حتى أكرمه الله بالوحي ولما سأله أحد أصحابه كما في الترمذي: «ما النجاة؟ قال: **كفَّ عليك لسانك وليسعك بيتك وابكِ على خطيئتك**»، ولما وقعت فتنة ابن الأشعث مع الحجاج فرَّ الشعبي العالم الرباني إلى الصحراء، فلما ظفر به الحجاج قال: أين كنت يا شعبي؟ قال: كنتُ حيث يقول الشاعر:

عَوى الذِّئبُ فَاستَأنَستُ بِالذِّئبِ إذ عَوى
وَصَـــوَّتَ إِنـســـانٌ فَـكِـدتُ أَطِـيـرُ

وفي كتاب (عشّاق الكتب) للفرحان أن الروائي الروسي العالمي (تولستوي) كان يقول: إن متعتي أن أكون في غرفة خالية على سرير، ومعي كتب أُطالعها، ويقول ابن الجوزي في (صيد الخاطر): لا أعلم أعز للعالم ولا أشرف ولا أهنأ ولا أسعد له من عزلته مع كتبه، وهذا يقوله أيضاً أخي العزيز أبو الطيب المتنبي:

(**وخير جليس في الزمان كتابُ**) وفكرة أخي قينان تقبلتها بقبول حسن لأنها وافقت رغبة دفينة قديمة في قلبي، وكما قال ابن أبي ربيعة:

وذو الشَّوقِ القديمِ وإنْ تعزّى
مشوقٌ حين يلقَى العاشقينا

والنصح إذا أتاك من محب منصف يعترف بالإيجابيات، ويذكر السلبيات فإنك تتقبله بنفس رضيّة، أما غمط الحقيقة عند البعض والتشفي بذكر الأخطاء وإغفال المحاسن وجمع الزلات والفرح بالأخطاء فهذا تطفيف وتزوير، حقه التجاهل والإعراض، وأنا أرحّب بمدرسة الإنصاف والتواصل والحوار التي تتوسط

مدرسة الغلو الديني والإقصاء الفكري والقمع الثقافي، فمرحباً بالفكرة الرائدة التي ينسجها قلم أبي عبدالله وأمثاله وشكراً لمن يقول الحقيقة في قالب من الأدب والذوق والحشمة والرقي، وفي المقابل أقول لكل غالٍ ومتطرف من كل فئة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، وأهلاً وسهلاً بالنظرات الجميلة من عيون الأسوياء العقلاء:

وَعَينُ الرِّضا عَن كُلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ
وَلَكِنَّ عَينَ السُّخطِ تُبدي المَساوِيا

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؟

هذا الجزء من آية كريمة يهز الكون، ويصيح في الأحياء يطلب منهم الإجابة بعدما عرض الله آياته الشرعيّة في كتابه المسطور وآياته الكونية في العالم المنظور، وللأستاذ حمد المرزوق كتاب بهذا العنوان: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؟ أجاد فيه كل الإجادة وأورد أدلة علميّة ونظريّة وكونيّة ونقل عن كبار العلماء والفلاسفة ما شفى وكفى، وسبب تأليفه الكتاب أنه خلا بكتاب الله متدبراً، ففتح عليه بإجابات صادقة عن أسئلة الحائرين، وأنا أدعو كل إنسان أن يطالع كتابين اثنين إلهيين: كتاب الله المفتوح وهو هذا الكون الهائل العظيم، وكتاب الله المشروح وهو القرآن الكريم، وأنا أنصحك إذا أطلقت نظرك أن تعمل فكرك، وتسأل نفسك: منْ الذي خلق وأوجد وأبدع وصّور؟

لقد سافرت من جاكرتا شرقاً إلى لوس أنجلوس غرباً، ومن جبال الكندوش بأفغانستان شمالاً إلى سفوح أثيوبيا جنوباً فوالله لقد شاهدت لوحة هائمة بالحسن من صنع الباري، بحار تتلاطم وأمواج تتصارع وجبال شاهقة كأنها أصابع تسبيح تشير بالوحدانية لله، وصحارى صامتة ممتدة في جوفها أسرار وأخبار بمن مرَّ على ثراها وسهول خضراء تملأ القلب بهجة والنفس رضًى، مكثت في الطائرة قرابة ثماني ساعات في سماء المحيط الهادي في ليلة مقمرة وأنا أنظر من نافذة الطائرة: يا ألله، سكون رهيب مرة أنظر في وجه القمر حسنًا وسناء، ومرة أشاهد وجه المحيط زرقة وبهاء، كون متسع أحياناً تمر الساعات طويلة بالطيران بلا بشر، ومن هم البشر في كون الله الواسع؟ وما قدرتهم أمام قدرة الله الهائلة؟

سبحان من هذا ملكه، ثم تعود لتفتح كتابه المسطور قرآن يُتلى ووحي منزّل على نبي معصوم، فإذا بالقرآن يدلّك على براهين الوحدانية في الأنفس وآفاق في الديار والبحار والقفار والليل والنهار، المهم أن تغسل فؤادك من المعتقدات

الترابيّة الخرافيّة الأرضيّة، وأن تكنس ذاكرتك من الأوهام والأفكار الرخيصة التافهة، وتعمل بتوجيهات القرآن في التفكر والتأمل ليزداد إيمانك، ويعظم يقينك وكبار علماء العالم أذعنوا لحقيقة وجود الله تعالى، والمطلوب توحيده سبحانه بالعبادة على منهج شرع الله، وأطالع كتاب: (الله يتجلّى في عصر العالم) وكتاب: (الطب محراب الإيمان)، وكتاب: (الإنسان لا يقوم وحده)، وكتاب (الإنسان ذلك المجهول) فأعجب من سخف الملاحدة وحمقهم، فهم يركبون رؤوسهم في غباء لينكروا نواميس الكون وبراهين الوحدانية وأدلة قدرة الله تعالى، شاهدنا جبالاً من السحب تحتنا ونحن في الطائرة يسوقها الله بالرياح سوقاً لبلد ميت؛ ليسقيه ثم يخبرك القرآن بهذا المشهد مفصّلاً، رأيت الطير والبهائم والزواحف والأسماك والحشرات كلها تطلب الرزق، وتصارع من أجل البقاء، وقد أرشدها الله إلى طرق عيشها: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾، هناك نملة تجاهد وتحمل الحبة إلى بيتها ثم تفقسها؛ لئلاّ تنبت ثم تضعها في المخزن، فمن الذي علمها؟

إنه الله العلي القدير، وهناك نحلة ترحل بين الزهور وتطوف على البساتين ترشف أحلى الثمر والطلع؛ لتصبّه عسلاً مصفى في خلية قامت بصنع بناء هندسي وشركة عاملة بتخصصات متعدِّدة، وهناك طائر يبني عشّه بمنقاره ثم يضع فيه بيضه ثم يطعم فراخه؛ حتى يستأنفوا الحياة، فمن الذي أرشد وألهم؟ إنه اللطيف الخبير من الذي رتّب المجرات، ونظّم الكواكب؟ كل شيء بدقة وحكمة: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ الرياح، الأمطار، الثمار، الحرارة، البرودة، الفصول، الليل، النهار، الكل بتقدير ونظام وإتقان، بلا زيادة ولا نقصان، فسبحان الملك الديّان، افتحوا أبصاركم أيها الناس وبصائركم وتأملوا في جمال الصنع وإتقانه ووقته وحسن الخلق ونظامه ولطفه، ثم قولوا: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

شاعر عجز عن مدح الله

أعرف شاعراً مشهوراً ما ترك حاكماً، ولا أميراً، ولا وزيراً، ولا تاجراً، ولا شيخ قبيلة، ولا عمدة قرية، ولا حارس عمارة إلا مدحه بقصيدة، وأثنى عليه بمقطوعة، ومدح الناس أحياناً وشكرهم لمقاصد مشروعة أمر لا بأس به، ولكن استغراق العمر وصرف الموهبة في مدح البشر والإعراض عن مدح خالقهم ورازقهم جلَّ في علاه أمر محيّر يثير الريبة والدهشة، وقد جمعني بهذا الشاعر لقاء، فقلت: يا فلان، أنت صاحب مدائح، فلماذا لا تمدح ربك تقدّس اسمه الذي له الجمال والجلال والكمال؟ فقال: أنا لا أجد معاني مثلكم يا مشايخ، لمدح الله.

وأقول له وكل الشعراء: ألا تجدون في خلق الله الباهي وفي صنعه البديع وفي نعمه المتتالية ما يحرك شجونكم لمدحه تعالى؟ وما يثير مواهبكم للثناء عليه سبحانه؟ أما في السماء بنجومها اللامعة وشمسها الساطعة ما يوحي لكم بأبيات ثناء؟ أما في القمر المنير، والجدول والغدير، والماء النمير، ما يدعوكم إلى حمد العلي القدير؟ أما في الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء، والرياض الخضراء، ما يناديكم لشكر رب الأرض والسماء؟ أما في الجبال الشاهقة، والهضاب الخاشعة، والسفوح المطمئنة، والصحراء الصامتة، ما يحرك قرائحكم بالإعجاب؟ أما في البحر الهائج، والمحيط المائج، والنهر المتدفق، والبحيرة المائدة، ما يهز ضمائركم لتسبحوا الواحد القهار؟ أما ترون الكون لوحةً هائمةً بالحسن؟ أما تشاهدون الآفاق، وهي ترسل رسائل الإبداع والإتقان بصنع الواحد الديان؟ أما تبصرون أحرف الوحدانية، وأسطر الصمدانية، أمامكم في الإنسان والحيوان والزمان والمكان؟

ما لكم لا تتمتعون بروعة الجمال في النجمة واليرقة والورقة والقطرة والحبة والبذرة والزهرة والشجرة، في إطلالة الصباح، في سكون الليل، في تجلي النهار، في بسمة الفجر، في إقبال الغروب، في إبداع العقل، في طريقة التفكير، في اختلاف

الصور، في تباين المعارف، في أنواع المشاهد والألوان والأحجام والأشكال، في زهرة الطفولة، ومِيعة الشباب، وجلال الشيخوخة، في مشهد النسل والتكاثر، والموت والفناء، يا شعراء، تسخِّرون العمر كله في مدح إنسان، يدركه الوهم والنسيان، ولا تمدحون الرحمن، الذي خلق الإنسان وأبدع الأكوان؟ تثنون على عبد فقير حقير يأكل الطعام وينام وتعصف به الأحلام وتلعب به الأوهام، ولا تثنون على الملك العلاّم الفعّال لما يريد ذو العرش المجيد، والبطش الشديد؟

ما لكم تمدحون المخلوق وتنسون الخالق، وتشكرون الناقص الفاني الضعيف العاجز المحتاج، ولا تشكرون الكامل الباقي القوي القادر الغني، تبجّلون العبد البخيل الشحيح، ولا تبجّلون الوالي الجواد السخي لا إله إلا هو، أيها الشعراء، كل عطاء وصلكم من مخلوق فإن أصله من الخالق وكل معروف أو جميل قد حصلتم عليه من عبد فإنما أصله من ملك الملوك، أفلا تمدحونه؟! أفلا تشكرونه؟! أفلا تسبحونه؟! من الذي يولي ويعزل، ويملّك وينزع؟ وينصّب ويخلع، ويهدي ويضل؟ ويغني ويفقر؟ ويضع ويرفع؟ ويقدّم ويؤخر؟ ويعز ويذل؟ ويحيي ويميت؟ إلا الله وحده:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ
وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ
وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ
وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ

آسف أن كثيراً من شعرائنا وغالب أدبائنا مشغولون بمدح العبيد الفقراء الحقراء الناقصين العاجزين الأموات، ثم لا يمدحون ذا الجبروت والملكوت تقدّس عن الأضداد، والأنداد، والصاحبة والأولاد، تهيم أيها الشاعر، في الثناء على إنسان مثلك مركّب من الطين، مخلوق من التراب، مردود إلى الثرى، محكوم

عليه بالفناء، وتغفل عن الثناء على ذي العزة والجلال الذي جمّل الشمس في ضحاها، ورفَعَ السماء وسوّاها، وبسط الأرض ودحاها، وأنزل المياه وأجراها، وأوجد الخليقة وأغناها، وأضحك البشرية وأبكاها، وخلق الإنسانية وأفناها، إذا مدحته تعالى أعزك، وإذا شكرته زادك، وإذا عبدته أثابك، وإذا استنصرته نصرك، وإذا استغفرته غفر لك، هو الذي يملك العزة والقوة والسعادة والملك والغنى والمغفرة، والرحمة اطلبها منه وحده، أما ما سواه من الخليقة فهم مثلك مخلوقون عاجزون فقراء ميتون، فهل ميت يطلب من ميت؟! وهل عاجز يمدح عاجزاً؟! وهل فقير يثني على فقير؟! وهل مقصّر يقدّس مقصراً؟! والله غني عن مدحي ومدحك، وعن عبادتي وعبادتك، وعن شكري وشكرك، ولكننا نحن الفقراء إلى فضله، ورزقه ورحمته ومغفرته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

أكبر كذبة في التاريخ

أشكر الفيلسوف الإسلامي الكبير الشيخ أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري في ردوده القوية الساحقة الماحقة على الملاحدة، وبالخصوص في كتابه (لن تلحد) ولو كان هناك عدل عالمي وإنصاف إنساني لمُنح هذا الموسوعي الألمعي جائزة نوبل، والمقصود أنه تهكَّم بالملاحدة، وسخر منهم، وشاركه في ذلك نوابغ العالم، فالعقاد في كتابه (مذاهب ذوي العاهات) خلص إلى أن الملاحدة معاقون عقليًّا وأنهم حمقى خالفوا المنطق والعقل والبرهان، وفي سيرة إينشتاين صاحب النظرية النسبية يقول: إن من ينظر في الكون يعلم أن مبدعه وخالقه حكيم لا يلعب بالنرد، وقد سخر الكاتب المصري الشهير أحمد حسن الزّيات في مجلة الرسالة من ناطق باسم مركبة الفضاء الروسية كتب في صحيفة البرافدا أن روّاد المركبة لم يجدوا الله سبحانه على عرشه، فكتب الزّيات مقالة منها: لكنها الشيوعية أرض بلا سماء، ويوم بلا غد، وعمل بلا خاتمة، وسعي بلا نهاية، إنها خرافة لكنها تافهة، ولعنة لكنها ماحقة، وكذبة لكنها كبرى.

وفي مذكرات الرئيس جورج بوش الأب (سيرة إلى الأمام) ذكر أنه زار موسكو؛ لحضور جنازة رئيس الاتحاد السوفيتي الأسبق برجنيف، قال: فوجدت الجنازة مظلمة لا نور عليها؛ لأنهم لا يؤمنون بالله ولأن بوش نصراني وهم ملاحدة، وللفيلسوف الكبير الروسي سخروف مذكرة أثبت فيها وجود الله سبحانه وبسببها نفاه الحزب الشيوعي إلى صحراء سيبيريا، وفي كتاب ابن عطاء الله يقول في القصص العالمي: إن أستاذ الرياضة في مدرسة ابتدائية بطاشقند سأل الطالب أحمد عن الله أين هو؟ فقال الطالب: الله في السماء، قال الأستاذ: هل رأيته؟ قال الطالب: ما رأيته، ولكن عرفته بمخلوقاته وآياته، وليس كل شيء يا أستاذ، لم نَرَه معناه العدم، فأنت تؤمن بالعقل وما رأيت العقل فغضب على الطالب، وقال لطالب آخر: وأنت تؤمن بوجود الله؟ قال الطالب: نعم، قال الأستاذ وما دليلك

علـى وجوده؟ قال: يا أستاذ، لو رأينـا بيتاً مشيداً ألا يدل على أن له بانيًا بناه؟ ولو رأينا لوحة جميلة ألا تدل على أن لها رسّاماً مبدعاً؟ كذلك هذا الكون العظيم يدل على أن له خالقًا عظيمًا.

وقـد نقل ابن تيمية إجماع عقلاء العالم من كل الملل والنحل على وجود الخالق سبحانه، وما أنكر ذلك في الظاهر إلا فرعون مع أنه مقر في نفسه بوجود الله، حتى قـال له موسـى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾. إن الإلحاد أكبر كذبة في التاريخ، وإن الملاحدة معاقون فكريًّا وحمقى عقليًّا ومرضى نفسيًّا، ولا إله إلا الله أصدق كلمة عرفها الدهر.

ولقـد قال المأمون لأحد الزنادقة: أنت تيـس وأتيس منك من يصدقك، وقال شمس الواعظين الشيرازي في القصص العالمي: والله إن حماري الأشهب الأجرب أذكـى من بندريـوف رئيس الحزب الشيوعي في طاشقنـد، وقال ابن معارف على لسان حمار توما الملحد:

قـــالُ حـــمـــارُ الحـكـيـم تـومـا:

لـو أنـصـفَ الـدَّهـرُ كـنـتُ أركـبْ

فـإنَّـــنـــي جـــاهـــلٌ بـسـيـطٌ

وصـــاحـبِـــي جـاهـــلٌ مـركَّـبْ

والرسـل الكـرام عليهم السـلام لم يأتوا فقـط بإثبات وجود الله، بـل بُعِثوا بتوحيده جل في علاه وألا يُعبد بحق سواه.

تصحيح العقيدة

ينبغي علينا نحن المسلمين أن نقوم قومة صادقة علماء ودعاة ومربين وأساتذة لتصحيح عقيدة المسلمين وتنقيتها مما علق بها من الشرك والبدع والخرافات، وهذا أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام، وهذا أوجب الواجبات وأصل الأصول وهو توحيد رب العالمين -جل في علاه-: توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، كما أتى به الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح بلا انحراف ولا تحريف للكَلِم عن مواضعه ولا تبديل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، بل نلزم المحجة الأولى التي كان عليها رسولنا ﷺ وآل بيته وأصحابه رضي الله عنهم لا نزيد ولا ننقص، ولا نقترح من عندنا، ولا نزيد من لدنا، ولا نضيف على الدِّين ما ليس فيه، يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»، وفي العالم الإسلامي مخالفات عقديّة كبرى يشيب لها رأس الوليد، وينادى لها الجبين من قبور يُتبرك بها، ويُطلب عندها الحاجات جُعلت مزارات يُطاف عندها، ويُناح عليها، وهذا من عمل المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقال ﷺ: «**اللهم، لا تجعل قبري وثناً يُعبد**» وقوله ﷺ: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وعند مسلم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ ألا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته، ولا صورة إلا طمستها».

أيها المسلمون: عودوا إلى توحيد ربكم سبحانه وتصحيح عقيدتكم والفرار من الشرك والبدع والخرافات التي أوقع البعض فيها أئمة الضلالة ودعاة البدع والتقليد الأعمى والجهل المطبق، ففي العالم الإسلامي قبور توضع عندها النذور،

ويذهب المريض إليها لطلب الشفاء والعقيم لطلب الذرية والمكروب لكشف كربته وهذه لا يقدر عليها إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾، وفي العالم الإسلامي أماكن يذبح عندها لغير الله وكهنة ومشعوذون وسحرة وأفّاكون يُذهب إليهم وقت الملمات والأزمات، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**من أتى كاهناً أو عرافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**»، وقال: «**من أتى عرّافاً أو كاهناً لم تقبل منه صلاة أربعين يوماً**».

فيا أيها المسلمون، حذارِ حذارِ من الشرك؛ فإنه أعظم الذنوب وأكبر الخطايا ولا يُقبل لمشرك عمل ولا يُغفر له ذنب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ونحن لا ندعو الناس لمذهب أحدٍ من البشر كائناً من كان، وإنما ندعو إلى اتباع الكتاب والسنة في العقيدة والعبادة والأخلاق والآداب وفي كل شأن من شؤون الحياة وليس في الأمة معصوم إلا الرسول ﷺ وما منّا إلا راد ومردود عليه إلا رسول الهدى ﷺ، فقوله حجة على الناس أجمعين ولا حجة لغيره إلا إذا كانت حجته من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والواجب علينا أن ننهض نهضة قوية؛ لتدارك عقيدة المسلمين، فإنها في كثير من الأقطار في وضع مأساوي، وقد سافرنا ورأينا ما يقض مضاجع المؤمنين، وما يذيب قلوبهم من أناس سُمّوا بالأولياء وهم دجاجلة كذّابون أفّاكون مزورون يفسدون عقائد الناس ويأكلون أموالهم بالباطل كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فأين علماء الأمة ودعاتها وقضاتها وأساتذتها ومربوها ومفكروها ومثقفوها الذين تشاغل

الكثير منهم بفروع المسائل، وأغرقوا في الجزئيات، ووقعوا في الجدل العقيم والخلاف المشؤوم والتنازع المذموم وتركوا عامة المسلمين في ليلة ظلماء، وداهية دهياء، يخبطون خبط عشواء، حتى فسدت عقيدتهم، وانطمست أنوار التوحيد في قلوبهم، فالله الله في الرحمة بهم، ولا يكون ذلك إلا بدعوتهم إلى التوحيد الذي هو حق الله على العبيد كما كان عليه القرن الأول من الأئمة والعلماء والمصلحين: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

حقيقة السلفية

السلفيــة هي المنهج الــذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابــه والتابعون وتابعو التابعــين ومن تبعهم بإحســان قولاً واعتقاداً وعملاً، فكل مــن اتبعهم ووافقهم في هذا المنهج القويم والصراط المستقيم فهو سلفي، ومن أئمة السلفية بعد الصحابة سعيد بن المسيب والحسن البصري والزهري ومالك وأبو حنيفة والشافعي والثوري والأوزاعي وأحمد ابن حنبل ومن وافقهم من الأئمة الأعلام، ومنهج السلفية منهج متكامل في العقائد والعبــادات والأخلاق والآداب والسلوك، ولهم قواعد منضبطة في كل باب من أبواب الشريعة؛ فهم مثلاً في باب الأسماء والصفات يقرون بما أتى عــن الله ورسوله ﷺ، ويصفون الله تعالى بمــا وصف به نفسه ووصفه رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، وقد خالفهم في هذه المسألة طوائف على نسبة في البعد والقرب كالأشاعرة، والمعتزلة، والجهمية المعطّلة.

وهــم في بــاب الجهــاد يدعــون للجهــاد في سبيل الله تحــت رايــة إسلامية وولايــة شرعيــة لمقصــد شرعي، ولتكــون كلمة الله هــي العليا مع تحقــق المصالح وانتفــاء المفاســد، وهم مثــلاً يعتقدون بمكانــة أهل البيت وتوقيرهــم واحترامهم وحبهــم لقرابتهــم مــن رســول الله ﷺ، ولكنهــم لا يرون أحــداً منهــم معصوماً غــير الرسول ﷺ، بل هــم في الإيمان كسائر الصحابة؛ منهــم السابق بالخيرات والمقتصــد والظــالم لنفسه، والسلفيون يوقِّــرون أصحاب الرســول ﷺ، ويعرفون قدرهــم ومحاسنهم، ويذبــون عنهم، ولا يخوضون فيما شجــر بينهم، بل يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ولا يجــوز أن يُجــزَّأ ويُقسَّم المنهج السلفي، فيقــال: السلفيــة الجهادية مثــلاً؛ لأن السلفية منهج متكامــل في الإيمان والعبادة والسياســة الشرعية والجهاد والأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر، ومن أحسن مَنْ

تكلم في منهجهم بتأصيل، وأسهب فيه بتفصيل شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان في المتأخرين على منهج السلف الإمام محمد بن عبدالوهاب وكثير من العلماء ممن حافظ على منهج السلف، وبقدر موافقة المسلم لهذا المنهج قولاً واعتقاداً وعملاً يكون سنيّاً سلفيّاً، وبقدر بعده يكون فيه شيء من المخالفة لمنهج السلف قلّ أو كثر، يقول رسولنا ﷺ في الحديث الصحيح: «**عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**». وقال ﷺ: «**مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**». وكانت القرون الأولى المفضّلة هي قرون الخيرية وظهور الدّين وانتصار الملة وسيادة الشريعة، كما قال ﷺ في الصحيح: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»، وقد توافق بعض الطوائف والأفراد السلفَ في باب من الأبواب، فلا يقال لهم: سلفيون، وإنما يقال: وافقوا السلف في هذا الباب.

والسلفيون متفقون على أصول الملة، وقد يختلفون في الفروع، فلا يخرجهم هذا من السلفية، كما وقع الخلاف في الفروع بين الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة، مع أنّ جمهور أئمتهم وعلمائهم سلفيون.